

كان أو جلدًا أو غيرهما. قال:

ومسداً أمر من أيا نطق

ورجل ممسود الخلق مجدوله. والمعنى: في جيدها حبل مما مسد من الحبال وإنما تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الخطابون، تخسيساً لحالها وتحقيراً لها وتصويراً لها بصورة بعض الخطابات من المواهن، لمتعض من تلك ويمتعض بعلمها وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدة. ولقد غير بعض الناس الفضل بن العباس ابن عتبة ابن أبي لهب بحمالة الحطب فقال:

ماذا أرتبت إلى شمتي ومنقصتي أم ما تعير من حمالة لحطب
غراء شائخة⁽¹⁾ في المجد غرتها كانت سليبة شيخ ناقب الحسب

ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الرقوم أو من الضريع، وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإخلاص مكية

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ⁽¹⁾.

﴿هو﴾ ضمير الشأن و**﴿الله﴾** هو الشأن. كقولك: هو زيد منطلق: كانه قيل: الشأن هذا وهو أن الله واحد لا ثاني له.
فإن قلت: ما محل هو؟ **قلت:** الرفع على الابتداء، والخبر الجملة.

فإن قلت: فالجملة الواقعة خبر الأبد فيها من راجع إلى المبتدأ فإن الراجع **قلت:** حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك: زيد غلامك في أنه هو المبتدأ في المعنى. وذلك أن قوله: الله أحد هو الشأن الذي هو عبارة عنه وليس كذلك زيد أبوه منطلق، فإن زيداً والجملة يدلان على معنيين مختلفين فلا بد مما يصل بينهما. وعن ابن عباس: قالت قريش: يا محمد صف لنا ربك الذي تدعوننا إليه فنزلت، يعني: الذي سألتهموني وصفه هو الله واحد، بدل من قوله الله أو على هو أحد وهو بمعنى واحد وأصله وحد. وقرأ

عبد الله وأبي: هو الله أحد بغير قل. وفي قراءة النبي ﷺ: «الله أحد بغير قل هو». وقال: «من قرأ الله أحد كان بعدل القرآن». وقرأ الأعمش: قل هو الله الواحد. وقرأ: أحد الله بغير تنوين أسقط لملاقاته لام التعريف ونحوه، ولا ذكراً لله إلا قليلاً. والجيد هو التنوين وكسره لالتقاء الساكنين.

اللَّهُ الصَّمَدُ⁽²⁾.

﴿الصمد﴾ فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم.

لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَوْلِيًّا⁽³⁾.

﴿لم يولد﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتولد. وقد دل على هذا المعنى بقوله أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة. **﴿ولم يولد﴾** لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم. ولم يكافئه أحد أي: لم يماثله ولم يشاكله، ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفيًا للصاحبة. سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته فقوله: هو الله، إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها، وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم؛ لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعاً على غاية إحكام واتساق وانتظام. وفي ذلك وصفه بأنه حي سميع بصير. وقوله: أحد، وصف بالوحدانية ونفي الشركاء. وقوله: الصمد، وصف بأنه ليس إلا محتاجاً إليه وإذا لم يكن إلا محتاجاً إليه فهو غني، وفي كونه غنياً مع كونه عالماً أنه عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه. وقوله: لم يولد وصف بالقدم والأولية. وقوله: لم يلد، نفي للشبه والمجانسة. وقوله: ولم يكن له كفواً أحد، تقرير لذلك وبت للحكم به.

فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد قص سيبويه على ذلك⁽³⁾ في كتابه فما باله مقدماً في أفصح كلام وأعربه؟ **قلت:** هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء وأغناه وأحقه بالتقدم وأحراره.

وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ⁽⁴⁾.

وقرأ: كفوًّا بضم الكاف والفاء، وبضم الكاف وكسرهما مع سكون الفاء.

فإن قلت: لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على

(1) شائخة: أي شخت شوحاً اتسعت في الوجه.

(2) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/

(3) نكره ابن حجر في لسان الميزان (442/6) ونكره الذهبي في ميزان الاعتدال (8915).

فلقان. وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمّة وماهم فيه من خفض العيش وما وسع عليهم من دنياهم. فقال: لا أبالي اليس من ورائهم الفلق. فقيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدّة حرّه.

يَنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٧﴾.

﴿من شر ما خلق﴾ من شر خلقه وشرهم، ما يفعله المكلفون⁽³⁾ من الحيوان من المعاصي والمآثم ومضارّة بعضهم بعضاً من ظلم وبغي وقتل وضرب وشم وغير ذلك. وما يفعله غير المكلفين منه من الأكل والنهس واللدغ والعض كالسباع والحشرات، وما وضعه الله في الموات من أنواع الضرر كالإحراق في النار والقتل في السم.

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٨﴾.

والغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه، من قوله تعالى: ﴿إلى غسق الليل﴾⁽⁴⁾ ومنه غسقت العين امتلات دماً، وغسقت الجراحة امتلات دماً. ووقوبه دخول ظلامه في كل شيء. ويقال: وقبت الشمس إذا غابت. وفي الحديث: لما رأى الشمس قد وقبت قال: «هذا حين حلها». يعني صلاة المغرب⁽⁵⁾. وقيل: هو القمر إذا امتلأ. وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: «تعوذني بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب»⁽⁶⁾. ووقوبه دخوله في الكسوف وأسوداده. ويجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات، ووقبه ضربه ونقبه، والوقب النقب. ومنه وقبة الثريد والتعوذ من شر الليل لأن أنبثائه فيه أكثر، والتحرّز منه أصعب. ومنه قولهم: الليل أخفى للويل. وقولهم: أغدر الليل، لأنه إذا اظلم كثر فيه الغدر. وأسند الشر إليه لملاّبسته له من حدوثه فيه.

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٩﴾.

﴿النفثات﴾ النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها⁽⁷⁾ ويرقين، والنفث النفخ مع ريق، ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثم

قصر متنها وتقارب طرفيها! قُلْتُ: لأمر ما يسود، من يسود. وما ذلك إلا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعذله وتوحيده وكفى ليلياً من اعترف بفضلها. وصنق بقول رسول الله ﷺ فيها أنّ علم التوحيد من الله تعالى بمكان، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم يشرف بشرفه ويتضيق بضيعه، ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز. فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله وإنافته على كل علم واستيلائه على قصب السبق بونه، ومن ازدراه فلضعف علمه بمعلومه وقلة تعظيمه له وخلو من خشيته وبعده من النظر لعاقبته. اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك العالمين لك القائلين بعذك وتوحيبك الخائفين من وعيدك. وتسمى: سورة الأساس لاشتغالها على أصول الدين. وروى أبيه وأنس عن النبي ﷺ: «أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد»⁽¹⁾. يعني: ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة. عن رسول الله ﷺ أنه سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد فقال: «وجبت». قيل: يا رسول الله وما وجبت؟ قال: «وجبت له الجنة»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفلق مختلف فيها

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّي الْغَلَقِيِّ ﴿١﴾.

الفلق والفرق الصبح لأن الليل يفلق عنه، ويفرق فعل بمعنى مفعول. يقال في المثل هو أبين من فلق الصبح، ومن فرق الصبح. ومنه قولهم: سطح الفرقان، إذا طلع الفجر. وقيل: هو كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك. وقيل: هو وار في جهنم أوجب فيها. من قولهم: لما أطمأن من الأرض الفلق، والجمع

(1) قال أحمد: نقل سيبويه أنه سمع بعض الجفافة من العرب يقرأ: ولم يكن أحد فكواً له، وجرى هذا الجلف على عانته، فجفا طبعه عن لطف المعنى لأجله اقتضى تقديم الظرف مع الخبر على الإسم، وذلك أنّ الغرض التي سيقته له الآية نفى المكافاة والمساواة عن ذت الله تعالى فكان تقديم المكافاة المقصود بان يسلب عنه أولى، ثم لم تقم لتسلب نكر معها الظرف ليبين الذات المقنّسة بسلب المكافاة، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (الحديث رقم: 2897)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: الفضل في قراءة: ﴿قل هو الله أحد﴾ (الحديث رقم: 994).

(3) قال أحمد: لا يسعه على قاعدته الفاسدة التي هي من جملة ما يدخل تحت هذه الاستعانة إلا صرف الشر إلى ما يعتقد خالفاً =

= لأفعاله، أو لما هو غير فاعل له البتة كالموات، وأما صرف الاستعانة إلى ما يفعله الله تعالى بعباده من أنواع المحن والبلايا وغير ذلك فلا؛ لأنه يعتقد أنّ الله لا يخلق أفعال الحيوانات، وإنما هم يخلقونها؛ لأنها شر والله تعالى لا يخلقه لبقه، كل ذلك تفريع على قاعدة الصلاح والأصلح التي وضع فسادها حتى حرّف بعض القدرية الآية فقرأ: ﴿من شر ما خلق﴾ بتبوين وجعل ما نافية.

(4) سورة الإسراء، الآية: 78.

(5) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث، زيلعي 335/4.

(6) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المعوذتين (الحديث رقم: 3366).

(7) قال أحمد: وقد تقدّم أنّ قاعدة القدرية إنكار حقيقة السحر، على أنّ الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه، والأمر بالتعوذ منه، وقد سحر ﷺ =